المحاضرة التاسعة:توظيف التراث في الرواية العربية.

أَوْلَى النقد المعاصر لعنصر المكان في الرواية بوصفه مكوّنًا هامًّا من مكوّنات البنية السردية وفاعلاً من فواعل فنّيتها وجماليتها، فلا رواية بلا أمكنة، و لم يلق المكان حظّهُ من الاهتمام والعناية إلاّ بعد صدور الكتاب التأسيسي المعروف" جماليات المكان "للناقد "غاستون باستلار"، فما هو المكان؟، وما علاقته بالمصطلحات الموازية له(الفضاء، الحيز)؟ وكيف تتجلى جمالياته داخل النص السردي؟

1-المكان: المفهوم والمصطلح:

قبل الخوض في الضبط الاصطلاحي للفظة" المكان "قَمِينٌ بنا الوقوف عند مسألة التشويش التُّرْجُمي الذي لحق هذا المصطلح أثناء نقله من لفظة . **Espace** وهو تشويش جعل الباحثين يقعون في مطبّ الخلط الاصطلاحي نظرا لتعدد الترجمات للكلمة الواحدة، إضافةً إلى اتصال اللفظة بحقول معرفية مختلفة لاسيما الفلسفية منها، فتوالدت مصطلحات محايثة لمصطلح المكان كالفضاء النصي والفضاء المكاني، فما يقصد **بالفضاء النصي** هو "الحيز الذي تشغله الكتابة ذاتها باعتبارها أحرفًا طباعية على مساحة الورق ويشمل ذلك طريقة تصميم الغلاف، ووضع المطالع، وتنظيم الفصول، وتغيرات الكتابة المطبعية وتشكيل العناوين وغيرها"

بينما يكون **الفضاء المكاني** هو" المعادل الموضوعي لمفهوم المكان في الرواية، ولا يقصد به بالطبع المكان الذي تشغله الأحرف الطباعية التي كتبت بها الرواية، بل ذلك المكان الذي تصوره قصتها المتخيلة، وعبارة جماليات المكان لا نقصد بها المكان الواقعي بل الذي يتكون سرديا فيحدث جمالية للخطاب الروائي إلا انه في الغالب يأخذ تفاصيله من الواقع الحقيقي يقول سيزا قاسم:" النص الروائي يخلق عن طريق الكلمات مكانا خياليا له مقوماته الخاصة وأبعاده المميزة."

2-الأبعاد الجمالية للمكان السردي:

2-1-البعد الجغرافي:

وهو ما تظهر فيه العناصر الجغرافية المؤثثة للمكان لكنها ذات حمولات متعددة يتحوّل معها المكان إلى لوحة فنية تشكيلية تثير اهتمام المتلقي، ويتشرط فيها شرطان: **أحدهما** :تأثيث المكان بالعناصر المشكّلة لجغرافيته، و**الآخر** :علاقات الداخل بالخارج جغرافيا.

2-2-البعد الهندسي:

ويظهر فيه استخدام المصطلحات الهندسية كالدائرة والمستطيل والمربع وبعض المفاهيم المتعلقة بالهندسة كقياس الأحجام والمساحات والأطوال والرواية إنّما تحاول في استخدامها للعناصر الهندسية" تقريب المكان ورسم أبعاده باستخدام شفرة لا يخطئ فهمها أحد، حيث لا يجب للمكان الروائي أن يشبه المكان الواقعي في تعقيده وتداخله"،وهنا نشير إلى أن استعمالات الروائيين للبعد الهندسي نابع في الأصل من تداخل الحقول المعرفية ببعضها بعضًا، حيث يتم استثمار علم الرياضيات، الهندسة على وجه التخصيص باستعارة مفرداتها وتوظيفها توظيفا استعاريًّا ممّا يضفي جمالية على المكان الروائي.

2-3-البعد النفسي:

وهو أعقد الأبعاد وأخطرها في الآن نفسه، حيث يعكس تمثلات الحالة النفسية للشخصيات على المكان وليس العكس ثم كيف يكون ردّ الفعل النفسي على تلك التمثلات، وهي مسألة معقدة نسبيًّا، لكن براعة الكاتب هي التي تمكن المكان من تَلَبُّسِ حالة صاحبه و"عادة ما يرتبط المكان على مستوى الرمز ببعض المشاعر والأحاسيس، بل ببعض القيم السلبية أو الإيجابية فيها ... هناك أماكن" محببة "هي بمثابة المرفأ والملاذ أهمّها البيت بلا شك رغم أنّه مكان مغلق ... وهناك أماكن مكروهة"

2-4-البعد التاريخي:

ونعني به البعد الزمني داخل المكان فلا مكان خارج الزمان وإذا كان المكان" يرتبط في ذهن البشر بالفراغ فإن الزمان يجسد الحركة والنشاط الدّائمين" وبالتالي فإن المكان في الرواية يتفاعل أيضًا مع زمانه أي مع تاريخه، ولا أدلَّ على ذلك من النصوص السردية التي تنفتح على التاريخ حيث يشتم المتلقي عبق المكان من خلال تأطير الأحداث ضمن حقبة تاريخية معينة.

2-5-البعد العجائبي:

مهما كانت الأمكنة في الرواية قادرة على إحالة نفسها على الواقع لكن البعد الفانتاستيكي سيظل حاضرا، لأنّ السرد في أصله فعل متجاوز للواقع ويرصد عوالم لا مألوفة حتى وإن كانت من صلب الواقع، وبالتالي، حينما" يقبل المتلقي هذا العالم فوق الطبيعي يكون في العجائبي"

3-أنماط المكان في النّص السردي:

اتّسمت تقسيمات الناقد" غالب هلسا "لأنماط المكان بالدقة وقد جعل للمكان ثلاثة أصناف بحسب علاقتها بالنص الروائي، نعرضها كالآتي:

1- المكان المجازي:

ويقصد به ساحة وقوع الأحداث دون أن يكون له دورٌ في تفاعل الشخصيات والوقائع في النص.

2- المكان الهندسي:

هو المكان الذي تصوره أو تمثله الرواية وتصف أبعاده الهندسية(الطول، العرض، الحجم، الارتفاع، العلو) دون أن يكون لطعم الحياة فيه.

3- المكان كتجربة:

المكان الذي ينبض بهواجس الشخصيات وأفكارها ومعاناتها وآمالها وآلامها ورؤيتها في علاقتها بذلك المكان، ويكون له تأثير في نفس المتلقي حيث يتصوره بخياله ويستحضره في عقله بواسطة الوصف الدقيق للتجربة الإنسانيّة التي ارتبطت ارتباطًا وثيقًا به، ويتميز بأنه يربط مكونات النّص ببعضها بعضًا، وهو ما يجعل المتلقي في اتصال مباشر به يأخذه إلى عوالمه في عملية إسقاط على تجربته الشخصية.

4 - المكان والواقع:

ترى" سيزا قاسم "أن تقنية الوصف أساسية جدًّا في تصوير المكان من حيث هي "محاولة لتجسيد مشهد من العالم الخارجي من لوحة مصنوعة من الكلمات، والكاتب عندما يصف لا

يصف واقعًا مجرّدًا ولكنه واقع مُشَ كَّل تشكيلاً فنّيًا، إنّ الوصف في الرواية هو وصف رواية مرسومة أكثر منه وصف واقع موضعي"

المراجع:

مصطفى الضبع :إستراتيجية المكان، دراسة في جماليات المكان في السرد العربي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 2018.

فوزية بوالقنادل: محاضرات في مادة السرديات العربية الحديثة والمعاصرة، السنة الثالثة، دراسات أدبية، جامعة الإخوة منتوري، قسنطينة 2025/2024.